الفصل الرابع

العبوديـــة

وحقيقة الإيمان هي العبودية التي لا تقوم إلا بعد معرفة الربوبية ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥].

والعبودية هي: ـ قبول الحق ، ـ ودفع الباطل ، ـ والتصرف حسب الحال المأمور به ، وقبول ما يكون منه خلف الستار.

فالعبد لا يعلم مشيئة الله المغيبة عنه ولكن يعلم ما هو مطلوب منه ، لذا عليه بذل الوسع في إنجاز ما طلب منه وما تقتضيه العبودية.

فآدم عليه السلام كان عليه تحقيق العبودية في الالتزام بالابتعاد عن الشجرة ، وليس له الاعتراض بذلك بأن الله قدَّر عليه الخروج من الجنة علماً بأنه كان مخلوقاً؛ ليعيش على الأرض وليس في الجنة ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ ﴾ ، [البقرة: ٣٠] لذا فالمخالفة (المعصية) تستوجب التوبة.

أما ما نجم عن هذه المخالفة من خروجه من الجنة فهي مشيئة الله تعالى المغيبة عنه. فعلى الإنسان فيما ابتلي فيه من معصية التوبة وكما تاب آدم عليه السلام ، وأما ما قدَّر عليه من أقدار فعليه الرضا والقبول ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر: ٥٥].

فالصبر على قدر الله عبادة وطاعة مأجورة ، والاستغفار من الذنب (توبة وندم) مأجور كذلك ، وهذه هي العبودية ، والحكمة في ذلك ﴿ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۚ ﴾ [الحديد: ٢٣].

فإذا شهد العبد نفوذ الأقدار فيه وتحقق له عجزه وافتقاره لربه وحاجته لعصمة الله تعالى ، وأنه في كل حال مع الله لا بنفسه فلا يتأتى منه في هذه الحالة معصية (وقوع ذنب) ، وإذا استولى عليه حكم نفسه عندها يحجب بهذا عن ربه.

لأن ما تجري به الأقدار لغاية وقصد ولها جزاء وحساب ، فيجد العبد أن قضاء الله كله خير وعدل ورحمة ، وأما المقضيُّ وهو المفعول المنفصل فهو قسمان:

أ ـ قسم عليه قبوله والرضا به. ب ـ قسم لا يجوز الرضا به.

مثال ذلك: قتل النفس المحرمة ، فمن حيث هو قضاء الله وقدره وانتهاء أجل المقتول فعلينا الرضا والتسليم ، أما من حيث إنه صدر عن القاتل وباشره بنفسه وكسبه وصدر عن اختياره وعصى ربه به فنسخط منه ولا نرضاه.

والإسلام: يعني التسليم لأمر الله ، فعلى المسلم أن يكون همُّه التصرف بما يرضي الله وحسب ما طلبه منه ، دون أن يتقدم برأي أو تعليل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ... ﴾ [الحجرات: ١].

فداود عليه السلام عندما تصرف حسب هواه (وهو الاشتغال بالعبادة) جانَبَ العبودية والاستسلام لأوامر الله في سماع قول الخصم. ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص: ٢٤] ، عرف ذنبه فاستغفر ربه. ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص: ٢٥] وهذا ما سجله له ربه: حسن العودة والإنابة إلى الله.

فلا التفات لتوقع النجاح أو الفشل ولكن الالتزام بالعبودية دون إدخال رأي أو وجهة نظر ، فستكون الأقدار في صالح العبد ، وأن التوحيد والعبودية يستوجبان ألا يكون للمسلم رأي يتقدم أوامر الله ورسوله ﷺ بل الالتجاء إلى الله وطلب الهداية منه (فاستهدوني أهدكم).

فالرسول عليه السلام لم يطلب من الله تعالى الرسالة ولا تغيير القبلة

ولكنه التجأ إلى الله تعالى يطلب منه الهداية ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] ، ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: ١٤٤].

. وإبراهيم عليه السلام لم يضع خطة مستقلة لهداية قومه ، ولكنه كان يتصرف في كل لحظة حسب الحال ، فتارة كسر الأصنام ، وتارة أخرى قال: إني سقيم ونظر في الكواكب.

ـ ومن وصايا الرسول الكريم ﷺ: «استعن بالله ولا تعجز».

والمسلم يقرأ في كل صلاة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ، يطلب الهداية من الله لما يعترضه من أمور الدنيا والدين.

وكان السلف الصالح إذا عرضت عليهم مسألة في الفقه يسألون: هل حصلت؟ فإذا لم تكن قد حصلت فلا يجيبون عنها؛ لأنه عندما تحصل فإن الله تعالى سيهدي إلى حلها.

وهكذا يعرف المسلم التوحيد بأن ما يقع من أقدار قد يتطابق مع حوادث في أزمنة وأمكنة قد لا يكون بينها ارتباط إلا كونها حصلت في آن واحد ، فالموت بالأجل وارتباطه بحادثة سير أو مرض أو غيرها. . ، فالتعامل مع الأقدار بالتسليم والتعامل مع الحوادث بشكل مستقل؛ لأن الأقدار يقدرها ربنا برحمته وعلمه وحكمته لصالح العباد ، أما الحوادث فتقع بمشيئة الأفراد الذين شاء لهم ربهم أن تكون حسب نواياهم وضمن مشيئته في تأديبهم أو تربيتهم ، وهكذا تجري الأمور بين حوادث ذات أهداف دنيوية علاقتها بنفوس البشر ومستوى إيمانهم ، وأقدار رب يريد الخير لصالح عباده.

فإنزال الله الملائكة في معركة بدر ليس له علاقة بالنصر أو الهزيمة بل هو لرفع معنويات المسلمين وزيادة إيمانهم ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ . .﴾ [الأنفال: ١٠].

وما حصل للمسلمين في معركة أُحُدٍ من عودة المنافقين ومخالفة بعض

المسلمين لتعليمات رسول الله ﷺ في أن لا يبرح الرماة أماكنهم. وغيرها ، ليس له علاقة بالنصر أو الهزيمة ، ولكن عرضها ربنا؛ ليعرف المسلمون مدى التزامهم بتعليمات قائدهم رسول الله ﷺ وانحراف أفكارهم عن العبودية لله في عدم طاعة رسول الله ﷺ ، وهكذا فإن جميع ما حصل من الغم والنعاس ونزول المطر والوضع النفسي هو لتربية المسلمين وليس لذلك علاقة بنتائج المعركة ، فمن أعمال إلى أجر وثواب وتوبة ومغفرة.. إلخ.

ـ وعندما أُمر الخليل بذبح ابنه وحيده امتثل للأمر فحقق العبودية دون أن يوجد لنفسه بعض التفسيرات أو التبريرات ، وكذلك الذبيح إسماعيل ـ عليه السلام ـ حقق العبودية بالامتثال الكامل للرؤيا فلم يؤوّلها أنها غير ملزمة لأنها رؤيا ، بل كان الامتثال للأمر كاملاً.

فأثنى الله على هذا الامتثال وفدى الذبيح بكبش؛ لأنه تعالى لا حاجة له إلى الذبيح ولكن لتحقيق العبودية الغالية عند الله.

ـ وموسى عليه السلام أراد أن ينصر أهل الحق على أهل الباطل ولكن جرت الأقدار أن يموت القبطي ، فاستغفر موسى ـ عليه السلام ـ ربه وعاهد ربه ألا يكون ظهيراً للمجرمين ، فحقق العبودية بالنصرة واستغفر ربه مما اقترفت يده.

وكذلك عندما ورد ماء مدين حقق العبودية بسقاية أغنام الفتاتين ، وطلب من الله أن يجعل على يده الخير فأكرمه الله بما قدر له من نكاح ابنة الرجل الصالح. ولما كلفه ربنا بالتوجه إلى فرعون بعد أن تجلى عليه في الطور وكلمه ربه بالرسالة ، لم يتردد في قبول الأمر بل طلب من الله المعونة بأن يجعل له وزيراً وهو أخوه هارون؛ لأنه أفصح لساناً منه.

ـ وداود عليه السلام قام بالعبودية بالجهاد ، فأكرمه الله بقتل جالوت على يديه وإعطائه الملك.

ـ كذلك سليمان عليه السلام قام بالعبودية بتسخير ما سخر له من فهم

كلام النمل والطير وتسخير الجن والريح لخدمة الدعوة إلى الله تعالى ، واستفادته من مقولة الهدهد ، فأرسل الرسائل لملكة سبأ وأحضر عرشها ، ولما شعرت بأن لا قِبَلَ لها بقوته أسلمت ، فأكرمه الله تعالى بأن كان ذلك عن طريقه.

ـ وذو النون عندما ذهب مغاضباً قومه الذين دعاهم لعبادة الله فلم يجيبوه وقدَّر الله عليه أن يبتلعه الحوت ، ولما استغفر ربه وأناب حقق العبودية فعاد إلى قومه فدعاهم فآمنوا.

ـ إذاً فليس للأنبياء والرسل إلا الالتزام بما كلفهم خالقهم وتحقيق العبودية له بالدعوة إليه والصدق في العمل والقول حتى تحصل الهداية قدراً من الله لمن يستحقها ، فالأقدار تأتي في الأحايين التي وقَّتها الله تعالى.

والمؤمنون باقون على أثر الأنبياء في تحقيق العبودية والالتزام بما أمر الله ، وقبول قضاء الله وأقداره دون توقُّع نتائج مسرّة أو ربط الأعمال التي يقومون بها عبوديةً لله بالأقدار الإلهية كما يتوقعون ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فإنكار المنكر والأمر بالمعروف من العبودية ، والالتجاء إلى الله والصبر على البلاء من العبودية ، وقبول قضاء الله من العبودية ، وشكر الله على آلائه من العبودية أيضاً ، واعتزال أهل الباطل والبدع والضلالات من العبودية ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨] ، والدخول في جماعة الصالحين ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] من العبودية ، وأن لا تطلب المعجزات من الله أو من رسوله ﷺ هو عبودية ، وتصديق ما أمرا به من العبودية ، والثناء على الله بما أثنى به على نفسه وبما علمنا رسول الله ﷺ من العبودية ، وأن تطع الله تعالى بما شرع عن طريق رسوله ﷺ وليس عن طريق غيره من العبودية ، و من العبودية أن تتعامل مع الله تعالى على حسب ما جاءت به الآيات وليس مع غيره وعدم الالتفات للمغريات ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ [الماعون: ١] ، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٢١] ، ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

وأخيراً الإيمان بالغيب (حق اليقين) وترك عين اليقين ليوم الدين، ولا ينجي العبد إلا عبوديته لله التي تحميه من الزلل وتغفر له ما وقع به من اللمم.

أقسام العبودية:

أ ـ عبودية عامة لأهل السماوات والأرض فالخلق جميعهم عبيد ربوبيته تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

ب ـ عبودية الطاعة والمحبة والاتباع لأهل طاعته ومحبته وهم عبيد ألوهيته ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ [الزمر: ١٧ ـ ١٨].

ـ ومن مظاهر العبودية: السجود لله وهو قهري ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥].

* * *

رؤية الفضل والشعور به
(الحمد) وشكر النعمة

ـ ينتفي الكفر عن العبد إذا وصل العبد إلى مرحلة الشكر ، فالشكر هو التعبير الإيجابي عن الحمد.

والحمد: هو ثناء باللسان مقرون بشعور قلبي بالرضا بعد الشعور بالفضل والإكرام الإلهي ، والإنسان بين الشكر والكفر ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣].

والكفر هو حجب عين البصيرة عن رؤية الفضل الإلهي فلا يرى نعم الله وآلاءه ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي . . ﴾ [الكهف: ١٠١].

والحمد هو رأس الشكر ، إذ الشكر هو المظهر الخارجي والعملي للحمد ، كما الإسلام هو المظهر الخارجي والإيمان هو الشعور الداخلي ، لذا قال تعالى: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ [سبأ: ١٣]. فمن عاين النعمة وعرفها وقدَّرها وعظمها فقد آمن ، ومن كتمها فقد كفر.

وحقيقة العبودية: ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده بعد أن غمرت قلبه ومشاعره وظهر أثر نعمته في جوارحه ، ومن تمام نعمة الله على عبده أن يلهمه شكر النعمة؛ لأن منفعة الشكر مختصة بالعبد ، ولقد قال العبد الصالح: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ . . ﴾ [النمل: ١٩].

والشكر الذي هو المظهر الإيجابي للحمد سبب لتوالي النعم واتصالها وزيادتها.

ـ فإذا استعظم العبد النعمة فقد حقق العبودية واستحلى الشدة فازداد قرباً ومحبة لربه وزاد شعوره بالافتقار إلى مولاه ، وزادت فاقته التي تتجدد بتجدد النعم ، فالغنى بالله والافتقار إليه سبب القرب إلى الله وليس باباً أعظم من التذلل إلى الله تعالى ، جاء في الأثر القدسي: عبدي اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء.

وقال أحدهم: ماذا وجد من فقدك وماذا فقد من وجدك..؟

فإن نعم الله تعالى مصدرها باذل النعم وهو المحمود على أفعاله كلها بما امتنّ على عباده وأكرمهم.

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل: ٥٩] ، و﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١].

والاعتراف بالفضل الإلهي الذي يغمر القلب لا بد أن يفيض على الجوارح فيظهر حمداً على اللسان وشكراً بالعمل ، وهكذا يباهي ربنا ملائكته الذين أسجدهم لأبينا آدم فيُظهر لهم فضل عباده.

والحمد شعور والشكر الوجه العملي ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ [سبأ: ١٣]، ويظهر أثر الشكر: بمعاونة الخلق الذين هم عباد الله فيتقرب العبد إلى ربه بمعونة عباده والنصح لهم. كما يظهر الشكر: بالتحدث بالنعمة وتعريفها للعباد بينما غمطها كفر؛ ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١].

ولا يستطيع أحد أن يحيط بنعم الله ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل: ١٨].

ـ والتسبيح: (وهو التنزيه عن العيوب والنقائص) مظهر من مظاهر الحمد وهو المأمور به وهو الملائم ، فالملائكة تسبِّح ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [غافر: ٧].

والكون كله يسبِّح ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

[الإسراء: ٤٤]. والأمر للعباد بالتسبيح ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ . . ﴾ [الواقعة: ٧٤].

ـ والثناء على الله تعالى وهو أهل الحمد ، والثناء لا يكون إلا بما بينه الرسول ﷺ بالسنة: (سبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) فلا يستطيع مخلوق أن يثني على ربه بشكل كافٍ وصحيح والأقرب لذلك الأنبياء الذين وعوا أكثر من غيرهم لذا نقتفي أثرهم ونقلدهم؛ لأن كفر النعمة يستوجب عذاب الله ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [ابراهيم: ٧].

ـ والنعمة: إما تكون مقيدة أو مطلقة ، فالمطلقة هي المتصلة بالسعادة الأبدية وهي التي أمرنا أن نطلبها فهي مضافة لله تعالى مُسْدِيْها والمؤمنون القابلون لها (محلها). ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

أما النعمة المقيدة وهي المشتركة مع جميع الخلق بَرِّهم وفاجرهم كافرهم ومؤمنهم ، كنعمة الصحة والغنى وعافية الجسد وبسطة الجاه والزوجة والولد فهذه استدراج للكافر ومآلها العذاب والشقاء فهي بَلِيَّة ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ . . ﴾ [الفجر: ١٦].

وهي للمؤمن نعمة يرقى بها إلى الله مرتين ، الأولى إذا تمتع بها وشكر الله عليها وعرفها من فضل الله ، والثانية عندما تكون سبباً في التعرف على أسماء الله الحسنى لما فيها من آيات مرتبطة بأسمائه تعالى.

ونعمة الأمن والإيمان من أعظم النعم؛ لأنها تتجلى في العيش والصحة وإبعاد الأذى ، إذ تكون المعاناة في عدم توافرها أو عدم انتظام الجوارح ، فيكون الصبر فيها له الأجر الأكثر ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

وكذلك نعمة العافية وخاصة عافية القلب ، وفي الحديث: (سلوا الله العافية).

ففقد النعمة يكون مثوبة عند المؤمن يعادل أجره أجر شكر النعمة عند

وجودها ، وفقد النعمة (مثلاً: الفقر ، أو الصحة..) إذا كان مثوبة يظهر في حسن الخلق عند العبد ، وإذا كان عقوبة يظهر بالتذمر وعصيان الرب تعالى والشكاية وسوء الخلق. فالله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال.

فما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في الثواب ، وأحسن منه تعففه ثقة بالله عز وجل ، فالساخط يحزن على المفقود وهو معذب ، ومن فرح بالموجود فهو حريص ، والحرص لأجل الدنيا مذموم ، ومن أتاه رزق من غير مسألة فردَّه فإنه يردُّ على الله ، ومن سُرَّ بالمدح فهو معجب والعجب يحبط العمل ، وأمة محمد ﷺ (المسلمون) أكثر الناس حمداً لله ، ورسول الله ﷺهو أحمد الخلق ، وقد اشتق اسمه من اسم الله الحميد الذي لا يستحقه إلا الله تعالى ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣].

* * *